حسن علوان الدرزيّة

او

اولاد مسعد الراهبة اللبنانية

بقلم القس انطونيوس شبلي اللبناني
رئيس معاملة جبيل والبترون

٢

المبتدئة والراهبة مسعد

قضت ثلاثة اشهر بثيابها العالمية في دير القرن، تمتحن الرئيسة دعوتها، حتى اذا وثقت بصحتها، كتب الرئيس العام المشار اليه الى رئيسة دير راهبات اللعازريّات في بيروت يستعلم عن سيرة وسلوك هذه الابنة، وهل هي متبرة ام لا. فوردته جملة طيبة بحقها، وشهادة بتنصرهـا، فألبسها اذ ذاك زيّ المبتدئـات الاب بطرس الحانـك البجدرفليّ، رئيس دير قزحيّا، في اول تشرين الثاني سنة ١٨٦٥، وسُميت الاخت مسيحيّة، وكان عمرهـا عشرين سنة. ولمّا اكملت سنتيْ الابتداء، وشّحها الرئيس العام بالاسكيم الرهبانيّ، ونذرت امامه وامام الراهبات النذور الرهبانية الاحتفالية في الثاني من تشرين الثاني سنة ١٨٦٧[1].

مجمل فضائل صاحبة الترجمة

بعد ان استوفينا الكلام عن اطوار حياة الاخت مسيحية علوان وعمّا حدث لها، يحسن بنا ان نأتي على ذكر لمحة عن مجمل فضائلها الرهبانية والادبية.

١) اليك ما جاء عنها في روزنامة دير القرن بحرفيته: «قد لبست الاسكيم الملائكي ونذرت النذر الاحتفاليّ الاخت مسيحيّة برمّانا من طايفة الدروز. قد اقترنت الديانة المسيحيّة وسرّ العماد المبرّر وطلبت الرهبنة فقبلها الرئيس العام بأمر السيّد البطريرك. وكانت راهبة مهذّبة وتعرف اللغة الفرنساويّة جيّدًا والعربيّة والسريانيّة، وذلك من يد الرئيس العام اقرام البشرّانيّ في ٢ ت ٢ سنة ١٨٦٧».

وعمَّا امتازت به من الصفات الحسان ، نقدّمها خير مثال لراهباتنا الوطنيّات جميعاً فيجدن فيها ما يثير في قلوبهنَّ حبَّ الرغبة في ان ينهجن نهجها ، وينعش في نفوسهنَّ روح الحياة الرهبانية الكاملة.

٢ً طاعتها

تفرَّدت الاخت مسيحية بين الراهبات بالدقّة في حفظ نذر الطاعة . فقد تخلّت عن ارادتها لرئيستها واصبحت لا تستقل امرًا ، ولا تتردَّد في قضاء عمل تأمر به الطاعة ، سواء كان صعباً او سهلًا . ومن الادلّة على سرعة طاعتها انها اذا كانت في الكنيسة تصلّي ، او في الدير تعمل ، ودعتها الرئيسة ، تركت عملها في الحال ووقفت أمامها مكتوفة اليدين مُطرقة العينين مستعدَّة لتسمع ما تأمرها به.

٣ً عفّتها

يدلّك على شغفها بالطهارة كرهُها للزواج ، على ما مرَّ بك ، وهجرُها اهلها ووطنها وهي في عنفوان شبابها ، وانجابُها طيلة العمر بين جدران الدير تمارس ضروب الزهادة والعبادة حبًّا بالله ، وصيانةً لفضيلة الطهارة البادية لكل ناظر اليها من حشمتها وآدابها بجميع حركاتها وتصرُّفاتها.

٣ً فقرها

لقد ارتقت الى درجة سامية من كمال الفقر الرهبانيّ . فلم تحبّ ان تلبس ثوباً جديدًا ، واذا اشارت اليها الرئيسة بلبسه اجابت ان يسوع لا يطلب مني ان أكون فقيرةً في باطني فحسبُ بل في ظاهري ايضاً . وكانت فضيلة الفقر ظاهرة للعيان في مرقدها ، وملبسها ، ومأكلها.

٤ً دعتها وضعتها

قد تخلّت الاخت مسيحية بهاتين الفضيلتين اللتين حبّباها الى كلّ القلوب ، وحملتا كلَّ القلوب على اكرامها واحترامها . فكانت تعدُّ ذاتها أصغر اخواتها وتأنف من الاطراء موثرة الضعة والسكنة ، سبّاقة الى كل خدمة حقيرة.

٥ً ملاحا

ان شغفها بالصلاة كان عظيماً . تصرف حصّة كبيرة من النهار والليل جاثيةً امام القربان الاقدس ، متأملةً او مصليةً . ولم تُهمل قط الصلوات السبع القانونية على القرّاءة . واما عبادتها للسيدة العذراء فحدّث عنها ولا حرج فكانت مغرمة بتلاوة وردّيتها غراماً . ومنذ اندمجت في سلك بنات اخويّة الحبل بلا دَنس في دير الراهبات اللعازريّات واناطتْ بعنقها ايقونتها ، بدأت تصلي فرضها في كلّ يوم وظلّت مثابرة عليه ومحتفظة بتلك الايقونة الى حين وفاتها ، ولكثرة ما كانت تقبّلها نعُمتْ وملستْ .

٦ً مثابرتها على العمل

عُهدت اليها خدمة الكنيسة في الاديار الثلاثة التي سكنتها : دير راهبات المحبة ، ودير القرن ، ودير الظهور . وفي كلها كانت بليغة النشاط والعناية بتنظيفها وترتيبها مما دلّ على حسن ذوقها وجزيل تعقلها .

وكانت تتمّ سائر اعمالها بمنتهى الصدق والنشاط والامانة . ولم تُرَ في كلّ حياتها الرهبانيّة بطّالة قط ، وكان يصعب عليها ان تذهب دقيقة من الزمان ضياعاً . وفي مرضها القصير والاخير ، قبل وفاتها بيومين ، كانت تتسلّى بفتل مغزلها ، وهي مستلقيةٌ على فراشها . ومن اقوالها : « ان الراهبة اذا كانت بطّالة لها اعداء كثيرون يحاربونها وينتصرون عليها . واما اذا كانت مشتغلة ، فلها عدوٌ واحد يمكنها التغلّب عليه بسهولة . »

٧ً زهدها في الدنيا

كانت الاخت مسيحيّة من أشدّ الراهبات ازدراء بالحياة الدنيا وبزخرفها الباطل ، لا يستهوي قلبها شيء من نعيمها ، ولا توقفها محنة عن اطراد التقدّم في معارج الكمال الرهبانيّ . وقد أخلتْ عقلها من الشواغل الدنيويّة وصبتْ بكل جوارحها الى التعمّق بالحياة الباطنية ، سادلة ستار النسيان على ما حدث لها من الحوادث وما انتابها من المكاره والخطوب ، لا تتولاها سآمة ولا كدر من مداومة الصلوات والاماتات وسائر اعمال الحياة الرهبانية .

كانت راغبة اقصى الرغبة في الاعتزال والانفراد عن الناس ليتسنى لها ان تحيا حياتها الباطنيَّة ، متمثلة بامائل القديسين الذين اعتزلوا عشرة الناس جهدهم وآثروا ان يعبدوا الله في الخلوة . وقد قال قائل : « كلّ مرة كنت بين الناس ارتددتُ انساناً مُنتقصاً »[1] لذلك كانت مغتبطة بعزلتها المؤنسة التي تعيش فيها مع يسوع عيشةً روحية لذيذة لا يعكر صفاءها معكر ، واضعةً نصب عينيها هذا القول : « من رام التوصل الى العيشة الباطنة الروحانية ينبغي له ان يعتزل مع يسوع عن الجميع[2] »

ومن حين خروجها من برّمانا لم تعد تحبُّ ان ترى من اهلها احداً ولا ان يؤتى على ذكرهم امامها ، ولم تُظهر يوماً رغبةً في مقابلتهم لدى حضورهم مرات الى دير راهبات المحبة ، ودير القرن ، ودير الظهر . وكانوا يأتونها حاملين السلاح في طي اثوابهم قصد اخذها قسراً او قتلها على ما تحقَّق عنهم فيما بعد .

قصدت مرة شقيقتها وابنتها دير مار يوسف الظهر ، وطلبتا من الرئيسة بتذلل وإلحاح مقابلة الاخت مسيحيَّة ، فاشارت اليها الرئيسة ان تواجهها قائلة لها : « هل تخشين شراً من مقابلة اختكِ وبنت اختكِ وهما امرأتان ضعيفتان لا تستطيعان إخراجكِ من الدير ولا الاضرار بكِ ؟ » فاجابتها : « تركتُ اهلي في بادئ الامر فلا أُحبُّ بعدُ ان اراهم لان السيد المسيح قال : ان كان احدٌ يأتي اليَّ ولا يُبغض اباه وأمه .. واخواته .. فلا يستطيع ان يكون لي تلميذاً[3] . وقال ايضاً : ليس احدٌ يضع يدهُ على المحراث وينظر الى الوراء يكون اهلاً لملكوت الله[4] » وهكذا خنقت في قلبها تلك العاطفة الطبيعيَّة ، واصرَّت على رفض رؤية شقيقتها وبنتها .

٨ تأسيس دير الظهر[5] وسكناها فيه

تحدَّثت الاخت مسيحية ، وهي في دير القرن ، ذات يوم ، الى الامّ اورسلا

١) كتاب الاقتداء بالمسيح ، سفر ١ ، فصل ٢٠ ٢) السفر عينه
٣) لوقا ١٤ : ٢٦ ٤) لوقا ٩ : ٦٢
٥) طالع ما كتبناه عنه في رحلتنا الى شمالي لبنان (المشرق ٣٤[١٩٣٦] : ٤٦٦-٤٧١) وقد وعدنا هناك باننا سننشر ترجمة هذه الراهبة الفاضلة مسيحيَّة .

ضومط المقادمة رئيسة دير مار يوسف الظهر الحالية قالت : «ألا يمكن انشاء دير للراهبات في جهات جبيل والبترون ؟» اجابتها الامّ اورسلا : «ليس ذلك بمستحيل اذا صلّيتِ وطلبتِ من الله . واذا صحّ هذا الظنّ يكون تشييده على اسم القديس يوسف.»

شرعت عندئذٍ الاخت مسيحيّة بعمل تساعيّة توصّلاً الى نيل هذه الغاية ، ولما انتهتا أتت الى الامّ اورسلا قائلة وهي تصفق بيديها فرحاً : «ستتحقق أمانينا ويصير دير ، لاني حلمت في نومي اني جاثية امام الصليب اخاطبه بهذه الكلمات : يحق جراحاتك يا سيدي ، سهّل الطُرُق لمار دير للراهبات في تلك البلاد ويكون على اسم مربّيك القديس يوسف ، فرأيت المصلوب قد رفع يده عن الصليب ومدّها اليّ وقال : يصير دير . يصير دير.»

كانت تروي هذا الحلم مراراً ، والبشرُ يطفح في وجهها . وقد عرضت على الامّ اورسلا ان تستدعي اليها شقيقها الخوري اغناطيوس ضومط ففعلت . ولما حضر اخبرته بما كان من حلم الاخت مسيحيّة ، وألحّت عليه ان يبذل قصارى جهده لتحقيق هذه الامنيّة ، فوعدها خيراً ورجع يسعى لدى السيد البطريرك يوحنا الحاج ، فنال منه بأذن وباشر بناء هذا الدير بمساعدة رهبانيتنا ، على تلّة تُسمّى ضهر وطا سفرتا ، قريبة من قرية جربتا . وكان من اقوى المعاونين له على تذليل الصعاب ، المطران يوسف دريان.

لما اكتمل بناء اربعة أقبية وستّ غرف واصبحت صالحة للسكن ، انتقل اليه من دير القرن ، سنة ١٨٩٧ ، ست راهبات من عدادهنّ الاخت مسيحية ، وعبدة الله الاخت رفقا الريّس التي نشرنا ترجمة حياتها في المجلة البطريركية المارونيّة ، ثمّ طبعناها على حدة.

٩ تثقيفها للمبتدئات

لمّا بلغت الاخت مسيحية الى كمال قداسة في السيرة ، اتفقت الكلمة على تعيينها معلّمة للمبتدئات في دير الظهر ، فكانت تتعهّد هذه الغراس الغضّة الصغيرة بافضل عناية واحسن تربية ، وتسهر على تنشئتهنّ راهبات تقيات ،

باذلة ما في وسعها بتثقيفهنّ على المبادئ القويمة ، طابعة في قلوبهن حب الفضيلة الصالحة المتجلّية في سيرتها والناطقة في تعليمها ، عاطفةً عليهن عطف الامهات على احبّ البنات.

كانت مثالًا لهنّ في الدقّة بحفظ القوانين بحيث لا تدع هفوةً تمرُّ بدون عقاب. وكانت تلبس لباس الخشونة للمبتدئات المتوانيات في تتميم واجباتهنّ ، وتسلك مسلك الرقّة مع النشيطات منهنّ ، جامعة بين العدالة والشفقة . وكان أمقت شيء لديها الكذب ، لانها هي لم تكذب كذبة بسيطة في كلّ حياتها الرهبانية ، على ما تشهد الام اورسلا ضومط التي عاشرتها سنين طويلة . لذلك كانت تحذّر المبتدئات من هذه الرذيلة بقولها : « هلّا رأيتنّ هذه السماء التي فوق رؤوسكنّ ؟ فاني أفضّل ان تهبط الى الارض على ان تكذب واحدة منكنّ كذبة بسيطة . واذا خطر لاحداكنّ ان تقتلني ، فلتقل بصراحة ان فكر القتل مرّ ببالها ، ولا تكذب ، فاقرارها بذنبها يستحقّ المغفرة.» وهكذا غرست في قلوب المبتدئات غرسة الصدق الجميلة.

١٠ً شهرة فضائلها

ثمّ عرف هذه النفسجة الطيّب ، ولهجت الالسن بقداسة سيرتها ، وكبرت منزلتها في العيون ، واعتبرتها الراهبات واهالي القرى المجاورة لدير الظهر ، راهبة قديسة . فكانوا يقصدونها طالبين صلاتها لشفاء مريض او لتفريج مكروب.

سألها واحد من اهالي صفار الصلاة لابلال مريض ، فاسرعت الى الكنيسة تصلّي واشعلت مصباحاً من الزيت امام مذبح سيدة لورد ، فانطفأ المصباح ثلاث مرات . فاستدلّت على ان المريض مائتٌ لا محالة واخبرت الرئيسة. وفي اليوم التالي مات . وقد جرت حوادث كثيرة على هذا المنوال تبرهن على ان ايمانها بالله كان شديداً ، ورجاءها به وطيداً ، وحبّها له عظيماً.

زار المطران بولس بصبوص دير الظهر واخذ يُطري فضائل الاخت مسيحيّة وممّا قاله:« انني لا أعجب من بنت درزية تصير مسيحية ثم راهبة ، لان للعناية

الالهية اسرارًا غامضة يعجز العقل عن ادراكها ، بـل أعجب من تفوقها على الراهبات بكمال سيرتها التي أهلتها لان تكون معلمة للمبتدئات »

وجملة القول ان الاخت مسيحية علوان قضت في دير القرن اثنتين وثلاثين سنة ، وفي دير الظهر ثماني عشرة سنة ، وحياتها فيهـا حافلة بأبهى الفضائل والمحامد ، واجلّ الخلال والمناقب.

كانت وادعة النفس ، مطمئنة الضمير ، أليفة السكينة والدعة ، مرهفة الذهن ، شجيعة القلب ، صبورة على الشدة ، بارعة الجمال ، مستوفية محاسن الخَلق والخُلق.

وفاتها

رأى الله عبدته هذه نضجت كالثمرة وحان وقت قطفها ، فاحبَّ ان ينقلها من حديقة الرهبانية الارضية الى جنة ملكوته السماوية ليمتعها بالسعادة الخالدة جزاء مبرّاتها الكثيرة . فقـد استمرّت متمتّعة بصحة العقل والجسم الى يوم وفاتها ، غير منقطعة عن الرياضات اليومية . وشاء الله ان يلهمها دنوّ أجلها ، فاخبرت رئيستها عن الشهر الذي تموت فيه ، واخذت تستعدّ للملاقاة ربّها بما في نفسها وقلبها من حرارة وشوق . وقد صدقت بما تنبأت.

ففي اليوم الخامس من شهر تشرين الثـاني سنة ١٩١٥ ، تناولت الزاد الاخير ، ومُسحت بالزيت المقدّس ، وهي في انتباه كامل . وما زالت تردّد هذه العبارة : «يا يسوع ومريم ومار يوسف ، أعينوني . بين ايديكم أضع روحي» ، حتى رقـدت بسلام رقادًا ابديًا . واذا اضجع البار فيرقد بسلام ويكون رقاده عذبًا[1] .

يقول المثل : من غاب عن الانظار ، غـاب عن الافكار ، ولكنه لا ينطبق على الصدّيق لانّ ذكره يحيـا الى الابد ، ولا يزال الخلف يتناقله عن السلف ، على تراخي الاجيال والاحقاب.

١) امثال ٣ : ٢٤